6

صحيح البخاري (١٢)

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شَرِيكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)} [آل عمران].

قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)} [النساء].

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)} [الأحزاب] أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد – صلى الله عليه وسلم– وشر الأمور مُحدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

نواصل إن شاء الله تعالى : شرح كتاب العلم من (صحيح البخاري)

(بَابُ كِتَابَةِ العِلْمِ)

يُبين الحافظ بن حجر أن من صنيع الإمام البخاري أو طريقته عند وقوع خلاف في مسألةٍ ما بين العلماء أنه كان يذكر الخلاف ولا يُرجح (وهذا هو صنيع علماء كُثُرْ) إذا كان هناك قضية وفيها خلاف بين أهل العلم وبالتالي فهي ليست محسومة فإنهم كانوا يذكرون أراء العلماء ولا يُرجِّحُون شيء معين وذلك يرجع إلى شدة ورعهم.

أما فيما يخص الباب فإن المسألة المُثار بشأنها الخلاف بين أهل العلم فهي:

(مسألة كتابة العلم) فهل هي مُستحبة أم مكروهة أم أنها واجبة ؟

ولكن الأمر الذي ليس فيه جدال ولا نقاش فهو: استقرار الإجماع وانعقاده على كتابة العلم سواء قيل أنه على سبيل الاستحباب (فريق) أو على الوجوب(فريق آخر) والوجوب أقرب لأن العلم إن لم يُدَوَّنْ فإنه سيضيع.

فأحاديث رسول الله ﷺ كانت محفوظة في الصدور على عهد الصحابة ومَن بعدهم، ومع كثرة الحروب والقتل وتفرُق الصحابة في البلاد وكذا التابعين إذا لم تكن هذه الأحاديث قد كُتِبت لم يكُن ليصل إلينا كل هذا العلم.

حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَمْرٌو، قَالَ: أَخْبَرَنِي وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ، عَنْ أَخِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: «**مَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدٌ أَكْثَرَ حَدِيثًا عَنْهُ مِنِّي، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، فَإِنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ وَلاَ أَكْتُبُ**» تَابَعَهُ مَعْمَرٌ، عَنْ هَمَّامٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ". **أخرجه البخاري(١١٣)**.

يقول أبو هريرة: أنه كان أكثر الناس استماعًا وتلقيًا من رسول الله ﷺ فقد كان مُلازمًا له باستمرار ولا يشغله شيئًا عن هذا إلا أن يجد قوت يومه في حين أن غيره من الصحابة كانوا مُنشغلين بشُئون حياتهم.

يقول الحافظ بن حجر: قَوْلُهُ فَإِنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ وَلَا أَكْتُبُ هَذَا اسْتِدْلَالٌ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَلَى مَا ذَكَرَهُ مِنْ أَكْثَرِيَّةِ مَا عِنْد عبد الله بن عَمْرو أَي بن الْعَاصِ عَلَى مَا عِنْدَهُ وَيُسْتَفَادُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ جَازِمًا بِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الصَّحَابَةِ أَكْثَرُ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُ إِلَّا عَبْدَ اللَّهِ مَعَ أَنَّ الْمَوْجُودَ الْمَرْوِيَّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَقَلُّ مِنَ الْمَوْجُودِ الْمَرْوِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ فَإِنْ قُلْنَا الِاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ فَلَا إِشْكَالَ إِذِ التَّقْدِيرُ لَكِنَّ الَّذِي كَانَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ الْكِتَابَةُ لَمْ يَكُنْ مِنِّي سَوَاءٌ لَزِمَ مِنْهُ كَوْنُهُ أَكْثَرَ حَدِيثًا لِمَا تَقْتَضِيهِ الْعَادَةُ أَمْ لَا.

لقد أكد أبو هريرة على أنه لم يكن في الصحابة مَن هو أكثر منه حديثًا عن رسول الله ﷺ ثم استثنى من هذا الأمر عبد الله بن عمرو بن العاص. ولكن هناك أحاديث أُخرى واردة تدل على أن عبد الله بن عمرو كان أقل رواية بكثير من أبي هريرة، فكيف قال أبو هريرة ذلك؟

فيما يخص أصول الفقه هناك ما يُسمى بالاستثناء:

فعندما قال: «مَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدٌ أَكْثَرَ حَدِيثًا عَنْهُ مِنِّي، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو».

– كلمة (إلا): هي الدالة على الاستثناء

ولكن كيف نجمع بين قول أبي هريرة السابق وهو أن عبد الله بن عمرو كان أكثر منه حديثًا عن رسول الله ﷺ وبين كونه أقل منه رواية عن رسول اللهﷺ؟

أولًا: لغة العرب قوية جدًا وواسعة ومَن لا يُجيدها قد يحدث عنده شيء من التعارض عند التعامل مع النصوص، وليس ثمة تعارض لا في الكتاب ولا في السنة.

ثانيًا: الفرق بين الاستثناء المتصل والمنقطع؟

–**الاستثناء المتصل هو:** أن يكون المُستثنى من جنس المستثنى منه

–**الاستثناء المنقطع هو:** أن لا يكون المستثنى من جنس المستثنى منه

* **مثال للنوع الأول:** دخل الطلاب القاعة إلا طالبًا واحدًا، فالطالب من هو جنس الطلاب، هذا هو ما يسمى بالاستثناء المتصل لأن المستثنى من جنس المستثنى منه.

* **مثال للنوع الثاني:** دخل جميع الطلاب القاعة إلا العاملين، فالعامل ليس من جنس الطلاب، هذا هو ما يسمى بالاستثناء المنقطع لأن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه.

فيما يخص ألفاظ الحديث يقول العلماء:

فإما أن الاستثناء مُنقطع فلا يكون هناك أي إشكال لأن الكتابة ليست من جنس الحفظ، وإما أن الاستثناء متصل وهنا يكون السبب فيه من جهات:

(وَإِنْ قُلْنَا الِاسْتِثْنَاءُ مُتَّصِلٌ فَالسَّبَبُ فِيهِ مِنْ جِهَاتٍ).

١- أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ كَانَ مُشْتَغِلًا بِالْعِبَادَةِ أَكْثَرَ مِنِ اشْتِغَالِهِ بِالتَّعْلِيمِ فَقَلَّتِ الرِّوَايَةُ عَنْهُ.

٢- أَنَّهُ كَانَ أَكْثَرَ مُقَامِهِ بَعْدَ فُتُوحِ الْأَمْصَارِ بِمِصْرَ أَوْ بِالطَّائِفِ وَلَمْ تَكُنِ الرِّحْلَةُ إِلَيْهِمَا مِمَّنْ يَطْلُبُ الْعِلْمَ كَالرِّحْلَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ مُتَصَدِّيًا فِيهَا لِلْفَتْوَى وَالتَّحْدِيثِ إِلَى أَنْ مَاتَ وَيَظْهَرُ هَذَا مِنْ كَثْرَةِ مَنْ حَمَلَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَدْ ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ أَنَّهُ رَوَى عَنْهُ ثَمَانَمِائَةِ نَفْسٍ مِنَ التَّابِعِينَ وَلَمْ يَقَعْ هَذَا لِغَيْرِهِ.

٣- مَا اخْتُصَّ بِهِ أَبُو هُرَيْرَةَ مِنْ دَعْوَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ بِأَنْ لَا يَنْسَى مَا يُحَدِّثُهُ بِهِ.

٤- أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ كَانَ قَدْ ظَفِرَ فِي الشَّامِ بِحِمْلِ جَمَلٍ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَكَانَ يَنْظُرُ فِيهَا وَيُحَدِّثُ مِنْهَا فَتَجَنَّبَ الْأَخْذَ عَنْهُ لِذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ أَئِمَّةِ التَّابِعِينَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

يقول الحافظ: ويستفاد منه أن النبي ﷺ قد إذن في كتابة الحديث عنه

وقال أيضًا: قَوْلُهُ وَلَا أَكْتُبُ قَدْ يُعَارِضُهُ مَا أخرجه بن وَهْبٍ مِنْ طَرِيقِ الْحَسَنِ بْنِ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةٍ قَالَ تُحُدِّثَ عِنْدَ أَبِي هُرَيْرَةَ بِحَدِيثٍ فَأَخَذَ بِيَدِي

إِلَى بَيْتِهِ فَأَرَانَا كُتُبًا مِنْ حَدِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ هَذَا هُوَ مَكْتُوب عِنْدِي قَالَ بن عَبْدِ الْبَرِّ حَدِيثُ هَمَّامٍ أَصَحُّ وَيُمْكِنُ الْجَمْعُ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَكْتُبُ فِي الْعَهْدِ النَّبَوِيِّ ثُمَّ كَتَبَ بَعْدَهُ قُلْتُ وَأَقْوَى مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ وُجُودِ الْحَدِيثِ مَكْتُوبًا عِنْده أَنْ يَكُونَ بِخَطِّهِ وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَكْتُبُ فَتَعَيَّنَ أَنَّ الْمَكْتُوبَ عِنْدَهُ بِغَيْرِ خطه.

شُبهة والرد عليها:

شبهة تُلقى على المسلمين الآن ألا وهي:

ما الذي يؤكد لنا صحة هذه الأحاديث؟ فلم تكن الأحاديث تُكتب على عهد النبي ﷺ ثم مات النبي ﷺ ولم تُكتب أيضًا إلى أن جاء عهد عمر بن عبد العزيز حين قام بتدوين السنة وبالتالي فإن كل هذا الذي ورد إلينا لم يكن إلا محفوظات.

أكبر إشكالية يمكن أن يقع فيها الإنسان أن يكون لديه فساد في التصور، فقد قال علماء الأصول: **(أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره)**.

ومعنى ذلك: أن الشخص لا يمكن أن يصل إلى الحكم الصحيح إلا إذا كان لديه تصور صحيح.

* **مثال:** شخص لم يعش في البيئة العربية ولا يدري عنها أي شيء فإذا ما قيل له أن فتاة (تسع سنوات مثل عائشة رضي الله عنها) تتزوج وهي في هذا السن، فإن هذا الشخص سيُفكر في الأمر من خلال ما يعرفه عن شكل ومواصفات الفتيات في البيئة المحيطة به ولذلك فهو يرفض أن يحدث هذا لفتاة في مثل هذا السن لأن كل تصوره ينصب على شكل

معين تحكمه بيئته هو، وهنا يُصدر حكم خطأ وتبدأ الشبهة في الدخول إلى عقله.

هذا الشخص لم يعلم شيء عن البيئة العربية ولا عن البركة التي كانت عند هؤلاء وكيف كانت طبيعة وقوة أجسامهم والتي اختلفت عن طبيعتها وقوتها الآن **{ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩)} [الفجر].**

الفكرة هي: أن الإنسان إذا لم يكن لديه تصور للقضية فإنه لا يستطيع أن يحكم على المسألة حكم صحيح.

ونفس القصة، الأخ اليوم يحفظ الحديث عن ظهر قلب وبمرور فترة من الزمن ينساه فإذا ما قيل له أن الصحابة كانوا يحفظون الأحاديث فإنه يقيس هذا الأمر على قوة حفظه هو فيقول: أنا بعد فترة أنسى وهؤلاء لم يُدونوا السنة في عهد النبيﷺ وبعد أن تُوفي وتركهم ظلوا على هذا الحال من عدم التدوين إلى أن جاء عهد عمر بن عبد العزيز فتدخل عليه الشبهة (وما أدراني أنها لم تُنسى وكذا القرآن أليس من الوارد أن يكون هو الآخر قد نسي فهو بدوره لم يُجمع إلا في زمن أبي بكر ولم يصدر في مصحف إلا في زمن عثمان فكل شيء كان يُكتب كان يُرجع فيه إلى ذاكرة الصحابة).

هذا الأخ لا يستطيع أن يُدرك أن الذاكرة كانت عالية جدًا، والرب سبحانه الرحمن الرحيم اللطيف بعباده يُرسل الآيات للدلالة على القدرة ولبيان أنه إذا أراد أن يمنحها لعبد فإنه يفعل ما لم يستطيع غيره أن يفعله، ويوجد بيننا الآن أناس ممن يشتد بهم الحفظ إلى الدرجة التي يحفظون فيها نصوص الكتاب ليس برقم الآيات ولكن تعدى الأمر إلى ما هو أبعد من

ذلك فأصبحوا يحفظون رقم الصفحة وبداية ووسط ونهاية ما هو مكتوبٌ فيها، وفي هذه النماذج بيان أن الله على كل شيءٍ قدير.

هذه رسائل من الرب سبحانه كي ترى العقول الفاسدة نماذج لما يستطيع العقل البشري أن يصل إليها وحتى يُدركون كيف كان حفظ الصحابة فالله عز وجل لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، لقد كانت البركة ملازمة لصحابة خير خلق الله سبحانه فسخرهم لحفظ هذا الدين فمنحهم العقول الجبارة المباركة المكسوة بكساء من التقوى والورع.
فيقول أحدهم: أفخذيه أم ركبتيه (كلمة يشك فيها فيورد هذه وهذه لأنه لا يستطيع أن يذكر إحداهما دون الأخرى من شدة ورعه وخوفه من أن ينقل نقلًا غير صحيح).

أما الآن فقد أصبح الورع شبه منتهي كما أن تقوى الله عز وجل أصبحت عملة نادرة فإذا ما قيل أن السلف كانوا يملكون هذه المقومات من البركة وقوة الحفظ والتقوى والورع فإن العقول بالرغم من ذلك لا تستطيع أن تُدرك أن هذه المقدمات أدت إلى تلك النتائج التي وصلوا إليها في القدرة على الحفظ والنقل والحفاظ على سنة رسول الله ﷺ لأن هذه العقول تقيس على ما يتصفون هم به من مقومات (التقوى_الورع_الحفظ)، فمهما بلغت درجة تقوى البعض الآن فلن تصل إلى الدرجة التي كان عليها الصحابة رضي الله عنهم، مستحيل أن يحدث فقد قال النبي ﷺ عنهم:
_عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ شَيْءٌ، فَسَبَّهُ خَالِدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ**

أَصْحَابِي، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ»أخرجه مسلم(٢٥٤١).

يتحدث النبي ﷺ إلى أصحابه عن أصحابه أيضًا ولكنه يقصد الصحابة الذين أنفقوا قبل الفتح، فإذا كانت المقارنة بين صحابي بصحابي وبالرغم من ذلك قال لن يُدرك مُدَّ أحدهم فكيف يكون الحال إذا كانت المقارنة بين صحابي وتابعي أو تابع تابعي بل كيف يكون الحال مقارنةً بنا نحن إذا جاز لنا أن ندخل في مقارنة مع هؤلاء.

إذن كيف يأتي شخص علماني فاسق فيقيس برأسه التي مُلئت بالشهوات والشبهات وبقذارة الغرب وانحطاطه بعقول الصحابة ويقول كيف كان يحفظ هؤلاء الأحاديث ولا ينسوها.

لماذا يستبعدون أن يصل الصحابة إلى هذه القوة في الحفظ وقد كانوا على درجة من الطهارة والنقاء والصفاء في الظاهر والباطن إلى جانب التقوى والورع التي وصلت إلى منتهاها، فإذا كان الرب هو الذي زكاهم فكيف تكون درجة تقواهم.

قال تعالى: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧)}[البقرة]

وفي هذا إثبات لصحة عقيدتهم.

وقال سبحانه: { وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)}[التوبة]

مَن لا يستطع أن يُدرك ما كان عليه الصحابة من تقوى وورع وصفاء ونقاء وبركة تؤهلهم لحفظ سنة النبي ﷺ ونقلها على أكمل وجه فهو فاسد العقل

وبالتالي فقد فسد تصوره، كما أن الذنوب والمعاصي تقوم بحجب الفهم وتؤدي إلى النسيان لأن الذاكرة تضعف بكثرة الذنوب.

وَقَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ: يُسْتَفَادُ مِنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذِنَ فِي كِتَابَةِ الْحَدِيثِ عَنْهُ وَهُوَ يُعَارِضُ حَدِيثَ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ **(لَا تَكْتُبُوا عَنِّي شَيْئًا غَيْرَ الْقُرْآنِ)** رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا:

-أَنَّ النَّهْيَ خَاصٌّ بِوَقْتِ نُزُولِ الْقُرْآنِ خَشْيَةَ الْتِبَاسِهِ بِغَيْرِهِ وَالْإِذْنَ فِي غَيْرِ ذَلِكَ.

-أَوِ النَّهْيَ خَاصٌّ بِكِتَابَةِ غَيْرِ الْقُرْآنِ مَعَ الْقُرْآنِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ وَالْإِذْنَ فِي تَفْرِيقِهَا أَوِ النَّهْيَ مُتَقَدِّمٌ وَالْإِذْنَ نَاسِخٌ لَهُ عِنْدَ الْأَمْنِ مِنَ الِالْتِبَاسِ وَهُوَ أَقْرَبُهَا مَعَ أَنَّهُ لَا يُنَافِيهَا.

-وَقِيلَ النَّهْيُ خَاصٌّ بِمَنْ خُشِيَ مِنْهُ الِاتِّكَالُ عَلَى الْكِتَابَةِ دُونَ الْحِفْظِ وَالْإِذْنُ لِمَنْ أُمِنَ مِنْهُ ذَلِكَ.

-وَمِنْهُمْ مَنْ أَعَلَّ حَدِيثَ أَبِي سَعِيدٍ وَقَالَ الصَّوَابُ وَقْفُهُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ قَالَهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ انْتَهَى.

ولكن هناك حديث أبي شاه الذي أمر النبي ﷺ فيه بالكتابة له.

قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ قَامَ فِي النَّاسِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: **«إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الفِيلَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهَا لاَ تَحِلُّ [ص:١٢٦] لِأَحَدٍ كَانَ قَبْلِي، وَإِنَّهَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَإِنَّهَا لاَ تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، فَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلاَ يُخْتَلَى شَوْكُهَا، وَلاَ تَحِلُّ سَاقِطَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ، وَمَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ، إِمَّا أَنْ يُفْدَى وَإِمَّا أَنْ يُقِيدَ»**، فَقَالَ

العَبَّاسُ: إِلَّا الإِذْخِرَ، فَإِنَّا نَجْعَلُهُ لِقُبُورِنَا وَبُيُوتِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِلَّا الإِذْخِرَ**» فَقَامَ أَبُو شَاهٍ - رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ اليَمَنِ - فَقَالَ: اكْتُبُوا لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اكْتُبُوا لِأَبِي شَاهٍ**»، قُلْتُ لِلْأَوْزَاعِيِّ: مَا قَوْلُهُ اكْتُبُوا لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: هَذِهِ الخُطْبَةَ الَّتِي سَمِعَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" **أخرجه البخاري(٢٤٣٤) ، أخرجه مسلم(١٣٥٥).**

إذن كانت هناك كتابة على عهد النبي ﷺ، بالفعل لم يكتبوا كل شيء ولكن كانت هناك بعض الكتابات ليست بكثرة كما حدث بعد موته ولكنها كُتبت على عهده ﷺ.

السؤال : كيف نجمع بين أحاديث النهي عن الكتابة وأحاديث الأمر بها؟

قيل: أن النهي كان في بداية الأمر أي عند نزول القرآن حيث أن النبي ﷺ خشي أن يختلط الأمر على الصحابة فيكتبون أحاديثه على أنها شيء من القرآن فيختلط هذا بذاك، هذا كان في بداية الأمر ثم بعد أن استقر بهم الفهم والتمييز واستطاع الواحد منهم أن يُفرق بين الحديث والآية أذِنَ لهم النبي ﷺ في الكتابة (وهذا هو أرجح الأقوال).

وأن الحديث الوارد فيه النهي منسوخ، وأمره ﷺ لأصحابه بالكتابة فيما بعد هو الذي نسخ نهيه لهم عن الكتابة، ويؤيد ذلك أن هناك أحاديث أُخر يأمر النبي ﷺ فيها، وهذا هو ما قاله الحافظ بن حجر حين أراد أن يجمع بين أمر النبي ﷺ بالكتابة وبين نهيه ﷺ عنها.

تنبيه:

ينبغي لمَن ينظر في الأحاديث فيرى أنها في الظاهر توحي بالتعارض فعليه أن يتهم نفسه بعدم الفهم لأنه لا يوجد ثمة تعارض بين الأحاديث فقد يكون الحديث(منسوخ _ ضعيف _أو أن يكون هناك راوي ثقة عن من هو أوثق

منه) أشياء كثيرة جدًا يمكن أن تؤدي إلى الاعتقاد بأن هناك تعارض وفي حقيقة الأمر لا يوجد أي تعارض.

ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني: "قال العلماء وكره جماعة من الصحابة والتابعين كتابة الحديث واستحبوا أن يؤخذ عنهم حفظا، كما أخذوه حفظا، لكن لما قصر الهمم، وخشي الأئمة ضياع العلم دونوه وأول من دون الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المائة، بأمر عمر بن عبد العزيز، ثم كثر التدوين، ثم التصنيف وحصل بذلك خير كثير، والحمد لله".

كما أن البعض قد اعترض على الكتابة وقالوا: أنهم أخذوا الحديث حفظًا فلماذا لا يؤخذ عنهم حفظًا كما أخذوه هم عن غيرهم حفظًا؟ وهذا يرجع إلى قوة الذاكرة التي كانوا يتمتعون بها والتيسير أولًا وأخيرًا من الله سبحانه، هؤلاء كانوا مُستنكرين جدًا للكتابة لأنهم يرون أن الحفظ أمر يسير ولا إشكال فيه (ولذلك قُلنا لابد من تصور البيئة أو الشيء حتى نستطيع أن نحكم حكمًا صحيحًا لأن التصور الخاطئ يؤدي إلى الحكم الخاطئ).

ثم كان من مناقب عمر بن عبد العزيز أنه أول مَن أمر بتدوين الحديث فكان أول مَن قام بالتدوين هو(ابن شهاب الزهري) فَحُفِظَتْ السنة.

وقد كان حرص السلف على كتابة العلم واضح جدًا ومن أمثلة ذلك:

* **عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ:** «كُنْتُ أَكْتُبُ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي صَحِيفَتِي حَتَّى أَمْلَأَهَا، ثُمَّ أَكْتُبُ فِي ظَهْرِ نَعْلِي، ثُمَّ أَكْتُبُ فِي كَفِّي» (**المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي**(٧٧٤)).

لم يكن سعيد بن جبير يمتلك الورق الذي يكتب فيه وهذا من شدة فقره فيكتب في الصحيفة فإذا مُلئت أخذ نعله ونظفه وكتب عليه وسار حافي القدمين ثم يكتب على كفه.

عن أبي كبران قال: قال لي الشعبي: لا تدعن شيئًا من العلم إلا كتبته فهو خير لك من موضعه من الصحيفة وإنك تحتاج إليه يومًا ما.

لقد أوصاه الشعبي أن يكتب كل شيء يصل إليه من العلم لأنه سيحتاج إليه يومًا ما(فإن تقييد العلم في كتابته).

عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ عَمِّهِ عَمْرِو بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، أَنَّهُ: سَمِعَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ، يَقُولُ: «**قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ**» سنن الدارمي(٥١٤).

فإن لم يُقيد العلم بالكتابة فلابد أن يُنسى في يوم من الأيام مهما كانت قوة حفظ الشخص، فمَن يستمع إلى درس من دروس العلم دون أن يكتب يمكن أن يستفيد بنسبة عشرون بالمائة فإذا عاد إلى بيته نسي فأصبحت النسبة أقل من ذلك فإذا مرت عليه عدة أيام فإنه ربما ينسى الدرس كله.

هؤلاء كانوا حريصين على تدوين كل ما يتفوه به الشيخ وحتى أدق التفاصيل التي تحدث في حلقة العلم كي يستطيع الواحد منهم أن يستفيد من كل شيء.

وقال الشافعي: طلبت هذا الأمر عن خفة ذات اليد، كنت أجالس الناس وأتحفظ، ثم اشتهيت أن أدون، وكان منزلنا بمكة بقرب شِعب الخَيْف، فكنت آخذ العظام والأكتاف فأكتب فيها، حتى امتلأ في دارنا من ذلك حبان.

وقال أيضًا: لم يكن لي مال فكنت أطلب العلم في الحداثة، أذهب إلى الديوان أستوهب منهم الظهور وأكتب فيها.

واستوهاب الظهور يعني: أنه كان يذهب إلى الدواوين فيجد مَن بها وقد كتبوا على الأوراق فيستأذنهم أن يكتب على ظهر هذه الأوراق.

قال الخطيب: سمعت علي بن عبيد الله اللغوي يحكي: أن محمد بن جرير مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة . (سير أعلام النبلاء).

تلك كانت همتهم فأين نحن من هؤلاء؟ فأعمارنا كأعمارهم وأيامنا كأيامهم ولكن الفرق يكمن في البركة وحسن النية وحسن العمل في الاقتداء والاهتداء والإقبال على الله عز وجل فبارك الله في الأعمال والأوقات، _ولقد ظل الحافظ بن حجر خمسة وعشرون عامًا يكتب كتاب فتح الباري، فأي صبر وأي عون ومدد وكرم هذا الذي أمده الله به حتى يظل على هذا الحال الذي بدأ به الكتاب من قوة الهمة إلى أن أنهاه، فلم يقل الصدق ولم يتغير الإخلاص وبالتالي فإن المدد لم ينقطع.

لقد كان لدى هؤلاء الناس طول نفس وإصرار وصدق في طلب العلم عجيب وهذا ما جعلهم لا يسقطون في أثناء سيرهم على الطريق لأن الصادق يأتيه العون من الله سبحانه وتعالى، فلا يعتقد أحد أن أحدًا من هؤلاء العمالقة الذين صدقوا في سعيهم لطلب العلم أنهم استمدوا قوتهم في هذا السعي من عند أنفسهم أو بحولهم وقوتهم ولكن القضية هي مدى الصدق والإخلاص ومتى أخلص وصدق فإن العون يأتي من الله وإذا جاء المدد والعون من الله فلا يسأل أحد عن الحال أو الخير الذي يُحَصِّله الواحد منهم فعطاء ومدد ملك الملوك لا يُحسب بميزان العقل، فالعقل

يعجز عن فهم ذلك، والإنسان إذا عرف مَن هو الله فإن كل شيء يأتي من عنده يعلم أنه بالنسبة لقدرته يسير.

الله سبحانه هو العليم الخبير الذي يعلم السر وأخفى.

ولكن المسلمون في ورطة لماذا ؟

لأن الله يعلم عن العبد مثقال الذرة فكيف له أن يعصي ربه بعد أن يعلم ذلك؟ وكيف يتوب توبةً نصوحًا؟ ويوم القيامة ماذا سيقول لربه؟ سيكون الحساب مع الملك الخبير العليم الذي تُقاس عنده الأشياء بمثقال الذرة فكيف يكون الخروج من هذا الحساب ؟ لن يكون إلا بالاستقامة والفهم لأسماء الله وصفاته والتعامل على أساس هذا الفهم ومن هذا المنطلق حتى يفيق المسلمون من هذه الغفلة فهم لا يدرون مع مَن يتعاملون؟

الإشكالية: أنه عند الحديث عن ارتقاء الأشخاص وفرق الدرجات فالكل يتجه بذهنه نحو الإخلاص في حين أن الإخلاص وحده لا يُؤدي إلى علو الدرجات هو بالفعل سيُقبل لأنه من الأعمال والأعمال لا تُقبل من غير إخلاص ولكن اختلاف الدرجات وتفاوتها يأتي نتيجة أعمال القلوب وليس بالإخلاص وحده.

لقد تكلم الإمام ابن القيم في مدارج السالكين عن مائة منزلة (الصبر_ اليقين _الإخلاص_الإخبات_المودة_التوكل_الإحسان_المحاسبة_المحبة) وكل منزلة لها درجات، وهذا هو الذي يُميز شخص عن الآخر فيُصليان جنبًا إلى جنب ولكن بينهما بُعْدَ المشرق والمغرب لماذا؟ لأن المسألة مسألة أعمال قلوب وليست أعمال في ظاهرها أنها مُتشابهة، أعمال القلوب هذه هي التي جعلت الصحابة يصلون إلى ما وصلوا إليه من

درجات وهي أيضًا التي أوجدت هذه الفروق بيننا وبينهم وإلا فإن الناظر لأعمالهم المتعلقة بالجوارح يرى أنها لا تختلف عنَّا كثيرًا (فالصلاة واحدة وكذا الصيام والحج والعمرة وكل العبادات) وقد يكون هناك مَن هم أكثر منهم عبادة كالخوارج مثلًا.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاَتَكُمْ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ، وَيَقْرَءُونَ القُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَنْظُرُ فِي النَّصْلِ فَلاَ يَرَى شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي القِدْحِ فَلاَ يَرَى شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي الرِّيشِ فَلاَ يَرَى شَيْئًا، وَيَتَمَارَى فِي الفُوقِ**» **أخرجه البخاري(٥٠٥٨) واللفظ له ، أخرجه مسلم(١٠٦٤).**

لقد قال النبي ﷺ ذلك فأثبت للخوارج أنهم أشد عبادة من الصحابة ولكنهم يمرقون من الدين، إذن المسألة ليست متعلقة بكثرة العبادة، وإن كانت العبادة مطلوبة ولكن لها ضوابط (الإخلاص_الإتباع) فالإخلاص وحده لا يكفي لأن أغلب الخوارج كانوا مخلصين بدليل كثرة عبادتهم ولكنهم لم يتبعوا فخرجوا من الدين، والقلوب لها مجموعة من الأعمال لابد أن تقوم بها مجتمعة قد تختلف في درجات تحقيقها ولكن ينبغي السعي من أجل القيام بها جميعًا، والإنسان الذي يعمل من أجل تحقيق الإخلاص فقط دون غيره من الأعمال وإذا ما وقع أثناء سيره على الطريق فإنه يُلقي باللوم على الإخلاص فيعتقد أنه غير مخلص هذا الإنسان قد يكون بالفعل

مخلص ولكنه توقف عند الإخلاص ولم يسعَ إلى القيام بباقي أعمال القلوب وأعمال الجوارح التي يمكن أن تُقربه من الله عز وجل.

إلى أصحاب العقول المُنتكسة والقلوب التي غابت بصيرتها،

ألم يكن الله سبحانه قادر على أن يبعث جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ ليأمره بكتابة السنة كما كان القرآن يُكْتب ؟ هل كان هذا بعيدًا ؟ لم يأمر ربنا بذلك لحكمة هو يعلمها، واعلموا أن أي فتنة يتعرض لها العباد فإن الحكمة منها في الأساس هي التمحيص والغربلة.

هذه الشبهة التي تُلقى على المسلمين هي في الأساس فتنة للتفريق بين الشخص الذي يُصدق أن القرآن محفوظ من عند الله وبين غيره ممن لا يُصدق ذلك، قال تعالى: **{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)} [الحجر]**، ومن سيكون لديه يقين على هذه الآية ومَن لديه شكٌ فيها؟ ومَن سيكون أيضًا لديه يقين على أن السنة محفوظة وحفظها هذا هو من لوازم حفظ القرآن ومَن يشك في ذلك ويُجادل فيه؟

فالسنة إن لم تكن محفوظة فإن القرآن هو الآخر لم يكن ليُحفظ لماذا؟ لأن القرآن سيُصبح عبارة عن مداد على ورق فماذا سنفعل به وحده إذا لم تكن بجانبه السنة؟

*** مثال:**

قال تعالى: **{ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)}[البقرة]**

كيف لنا أن نعلم كيفية إقامة الصلاة إذا لم تكن هناك سنة توضحها؟ وكذا في الزكاة كيفية إخراجها ونصابها ؟

كل الأحكام الوارد ذكرها في القرآن ليس لدينا تفاصيل لكيفية أدائها وبالتالي فإن السنة إن لم تكن حُفظت بحفظ الله عز وجل لما استطعنا أن نُطبق أحكام القرآن فنأتمر بأوامره و ننتهي بنواهيه ونتوقف عند حدوده، إذن قوله تعالى: **{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)}** يندرج تحته حفظ السنة فهي بدلالة اللزوم الذهني.

فالمقصود بحفظ الله عز وجل للقرآن لا ينحصر في مجرد الحفظ من التحريف للكلمات والآيات ولكن الحفظ يشمل حفظه كشرع.

وإلا فما هي الفائدة التي تتحصل إذا حُفظ من مجرد التحريف فظلت الآيات على ما هي عليه دون أن يُحفظ كشريعة لابد أن تُطبق؟ وهل أُنزل علينا القرآن كي نحفظه(كلمات _آيات) أم أنه أُنزل علينا كتشريع (أوامر_نواهي)؟

بالفعل هو تشريع وقصص للعبرة والموعظة وبيان لكيفية تحقيق التوحيد، إذن القرآن نزل لِحِكم كثيرة ولن تكون هذه الحكم واضحة بغير بيان لها من السنة.

وقال الشافعي: العِلمُ صَيدٌ والكِتابةُ قَيدُهُ -- قَيِّدْ صيودكَ بالحِبالِ الواثِقَة،
فَمِن الحَماقَةِ أَنْ تَصيدَ غَزالَةً -- وتَترُكها بَينَ الخَلائقِ طالِقَة

_فليس من المعقول أن يصطاد شخصٌ غزالة ثم يتركها لأنها حتمًا ستضيع، وكذلك الخاطرة أو الفائدة لابد أن تُكْتَب حتى لا تُنسى.

(بَابُ حِفْظِ العِلْمِ)

حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: "إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَلَوْلاَ آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا، ثُمَّ يَتْلُو {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالهُدَى} [البقرة: ١٥٩] إِلَى قَوْلِهِ {الرَّحِيمُ} [البقرة: ١٦٠] إِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ المُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ، وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمُ العَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَلْزَمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشِبَعِ بَطْنِهِ، وَيَحْضُرُ مَا لاَ يَحْضُرُونَ، وَيَحْفَظُ مَا لاَ يَحْفَظُونَ. "أخرجه البخاري(١١٨).

- **الصفق:** هو ضرب اليد على اليد والمراد التجارة وأطلق عليها لاعتيادهم فعله عند عقد البيع.
- **في أموالهم:** مزارعهم، - **بشبع بطنه:** يقنع بما يسد جوعه،
- **يحضر:** يشاهد من أحواله صلى الله عليه وسلم.

قال الصحابة: أكثر أبو هريرة، فخشي رضي الله عنه أن يداخلهم الشك في صحة أحاديثه، فقال رضي الله عنه: لولا وجود هاتين الآيتين اللتين توعد الله تعالى بهما كاتم العلم باللعنة لما رويت لكم حديثاً واحداً، ولكني أخشى أن تصيبني هذه اللعنة إن أنا كتمت حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم (**منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري**).

يقول أبو هريرة لمَن يلومه على كثرة تحديثه: لولا وجود هاتين الآيتين في كتاب الله لما حدثت أحد بحديث لأن بهما لعن لمن كان لديه علمٌ ولم يُبينه للناس.

فتحدث بحديث رسول الله خشية أن يكون ممن لديه علم وكتمه، وكيف يكون لديه حديث عن رسول الله ﷺ ويكتمه وهو صحابي من أصحابه رضي الله عنهم جميعًا.

قال تعالى: **{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)} [البقرة]**.

الآيات تنص على أن الله سبحانه يلعن مَن كان لديه علمًا وكتمه وكذلك الملائكة يلعنونه.

ثم تأتي الجزئية الأخرى من الحديث لبيان العلة من انفراده بكثرة التحديث عن رسول الله ﷺ، فقد كان المهاجرين مشغلون بالتجارة كما كان الأنصار مشغلون بمزارعهم، أما أبو هريرة فقد كان مُلازمًا لرسول الله ﷺ وهذا ما جعله أكثر سماعًا لحديث رسول الله ﷺ وبالتالي أكثر تحديثًا عنه.

وفي الحديث بيان لفضيلة أبي هُرَيْرَة: وَفضل التقلل من الدُّنْيَا وإيثار طلب الْعلم على طلب المَال.

وهذا واضح جدًا :حيث المواظبة على طلب العلم وشدة الحرص على حفظه، التقلل من الدنيا وفي ذلك حث للآخرين على عدم الانشغال بالدنيا

لأن عدم انشغال أبي هريرة بالدنيا جعل قلبه يصفو فلا يشغله شيء إلا تحصيل العلم.

فلننتبه: فكلما قلَّ انشغال الإنسان بالدنيا كلما صفا قلبه، وكلما زاد انشغاله بها كلما تكدر قلبه وفسد، والدنيا تشمل (الطعام_الشراب_ النوم_البيع_الشراء_الأولاد_الأهل_قيل وقال_الانشغال بأحوال الغير)فإذا انشغل القلب بكل هذه الأشياء فإنه حين يسمع المواعظ والعبر الكثيرة لا يتأثر بها لماذا؟ لأن المحل غير قابل فهو نقطة الاستيعاب، وهو مُنشغل وهذا ما جعل البعض ينتفع ويعمل حين يسمع والبعض الآخر لا يفعل هذا، وكذلك فإن مشكاة النبوة واحدة والقرآن واحد والأحاديث واحدة والكل بشر ولكن تتفاوت القلوب في القبول نظرًا لتفاوت درجات انشغالها بما هو حولها من أمور الدنيا.

لقد قلَّ انشغال قلوب الصحابة بأمر الدنيا فصفت قلوبهم وتوجهت إلى الله وهي على هذه الصورة فلم يشغلهم إلا ذكره، أما نحن فقد شغلتنا الدنيا بكل ما فيها من فتن، فالكل مفتون بدنياه ويستوي في ذلك الغني والفقير، فالقضية لا تُقاس بما يمتلكه العبد ولكن القضية هي: الهدف الذي يسعى الإنسان لتحقيقه، فإن لم يكن لديه هدف يسعى لتحقيقه فليعلم أنه واقع في إشكالية كبيرة، فتحديد الهدف ومحاولة الوصول إليه يدفع صاحبه إلى عدم الانشغال بغير تحقيقه، أما بدون هدف فإن الإنسان يعيش فقط لينال من الدنيا فيتخبط أثناء ذلك ويستوي في ذلك الغني و الفقير.
فإما أن يكون القلب صافيًا أو أن يكون منشغلًا فإياكم والانشغال بالباطل لأن كل ذلك يمنع من الوصول إلى الهدف.

وَفِيه: جَوَاز الْإِخْبَار عَن نَفسه بفضيلته إِذا اضْطر إِلَى ذَلِك وَأمن الْإِعْجَاب.

وَفِيه: جَوَاز إكثار الْأَحَادِيث وَجَوَاز التِّجَارَة وَالْعَمَل وَجَوَاز الِاقْتِصَار على الشِّبَع، وَقد تكون مندوبات، وَقد تكون وَاجِبَات بِحَسب الْأَشْخَاص والأوقات. (عمدة القاري شرح صحيح البخاري).

وقيل في أهمية حفظ العلم:

وَالْحِفْظُ لَا يَكُونُ إلا مَعَ شِدَّةِ الْعِنَايَةِ وَكَثْرَةِ الدَّرْسِ وَطُولِ الْمُذَاكَرَةِ، وَالْمُذَاكَرَةُ حَيَاةُ الْعِلْمِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ دَرْسٌ لَمْ يَكُنْ حفظ، وَإِذا لم يكن مُذَاكَرَةٌ قَلَّتْ مَنْفَعَةُ الدَّرْسِ، وَمَنْ عَوَّلَ عَلَى الْكِتَابِ وَأَخَلَّ بِالدَّرْسِ وَالْمُذَاكَرَةِ ضَاعَتْ ثَمَرَةُ سَعْيِهِ وَاجْتِهَادِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ. (أرشيف ملتقى أهل الحديث).

وَالْمُذَاكَرَةُ حَيَاةُ الْعِلْمِ: كلمة تحتاج إلى أن يوضع تحتها الكثير من الخطوط نظرًا لأهميتها، فإن لم تُصاحب العلم المذاكرة فإن العلم سيموت.
وَإِذا لم يكن مُذَاكَرَةٌ قَلَّتْ مَنْفَعَةُ الدَّرْسِ: كما قلنا قبل ذلك إذا لم يكتب الدرس فإن منفعته سوف تتناقص إلى أن تذهب بالكلية لأنه سيُنسى.
وَمَنْ عَوَّلَ عَلَى الْكِتَابِ وَأَخَلَّ بِالدَّرْسِ وَالْمُذَاكَرَةِ: أي لم يعتني بحضور درس العلم اكتفاءً بما سيجده في الكتاب، وكذا لم يُذاكر إلا وقت الاختبار
ضَاعَتْ ثَمَرَةُ سَعْيِهِ وَاجْتِهَادِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ: أي لن يكون هناك نتيجة لسعيه.

وقيل: مَن مُنح الحفظ وعى ومَن ضيع الحفظ وهن.

وهذا يعني: أن مَن كان لديه قُدرة على الحفظ سيعي الكلام، أما مَن ضيع الحفظ فإنه سيأتي ليقول المعلومة فإنه سيُخطئ في سردها سواء تعلقت بحفظه لحديثه أو بمسألة فقهية لأنها قد تختلط عليه.

سَمِعْتُ أَبَا عِيسَى عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ إِسْمَاعِيلَ، يَقُولُ: قَالَ لِي أَبِي وَهُوَ يَحُضُّنِي عَلَى النَّظَرِ فِي عِلْمِي: " **اسْتَبَّ رَجُلَانِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: يَا رَفَفِيُّ فَانْخَذَلَ ذَلِكَ الرَّجُلُ وَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ قَابَلَهُ بِشَيْءٍ عَظِيمٍ ثُمَّ عَمِلَ فِي صَلَاحِ مَا بَيْنَهُمَا فَاصْطَلَحَا فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ تَمَازَحَا فَقَالَ لَهُ: كُنَّا اسْتَبَبْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا فَقُلْتَ لِي فِيمَا قُلْتَ لِي: يَا رَفَفِيُّ مَا الرَّفَفِيُّ؟ قَالَ: رَأَيْتُكَ تَكْتُبُ الْعِلْمَ وَتَضَعُهُ عَلَى الرَّفِّ** " (**الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي(١٧٦٥)**).

قال أبو زرعة: كان أحمد بن حنبل يحفظ ألف ألف حديث –يعني مليون حديث، والمراد بذلك الأسانيد والمتون– فقيل له: ما يدريك؟ قال: ذاكرته، وأخذت عليه الأبواب.

لقد سُئل الإمام عن حفظه وعدم نسيانه فقال : **كنت أذاكر وأكتب.**

فما هي الأسباب التي يمكن أن تُعين على الحفظ؟

١-إخلاص النية:

أول شيء يمكن أن يُعين الشخص على الحفظ هو أن يكون طلبه للعلم ابتغاءً مرضاة الله عز وجل وليس للمباهاة أو التفاخر بقدرته على الحفظ، فإذا كان يريد أن يحفظ كتاب الله فلتكن نيته هي أن يُقال له اقرأ وارتق فإن منزلتك.

_عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " **يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا** " سنن أبي داود(١٤٦٤)، [حكم الألباني] : حسن صحيح.

فإذا كان يريد أن يحفظ أحاديث رسول الله ﷺ فلتكن نيته هي الدفاع عن سنته ﷺ وحفظها ونقلها فيزيل بذلك الجهل عن نفسه وعن الآخرين وكذا العمل بها.

قال بعض السلف: إنما يحفظ المرء على قدر نيته.

فكلما صفت النية كلما زاد الحفظ وكلما حدث خلط فيها كلما قلَّ الحفظ، وكان السلف يحرصون على إخلاص النوايا في كل شيء يعملون به.

وعن زُبيد اليامي قال: (إني لأحب أن تكون لي نية في كل شيء حتى في الطعام والشراب).

٢-ترك المعاصي:

قال ابن القيم (كتاب الداء والدواء):

- وَلِلْمَعَاصِي مِنَ الْآثَارِ الْقَبِيحَةِ الْمَذْمُومَةِ، الْمُضِرَّةِ بِالْقَلْبِ وَالْبَدَنِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ.

_ فَمِنْهَا: حِرْمَانُ الْعِلْمِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي الْقَلْبِ، وَالْمَعْصِيَةُ تُطْفِئُ ذَلِكَ النُّورَ.

انتبهوا: لأن المعاصي تؤثر على القلب والبدن أيضًا.

ولا يتعجب أحد من القول بأن المعاصي تضر البدن، وأكبر دليل على ذلك هو انتشار الأمراض التي لم نكن نسمع عنها منذ سنوات قليلة بين الكبار، نحن الآن نسمع عن انتشارها بين الشباب بل وبين الأطفال

_أول شيء هو حرمان العلم، لأن العلم نور من عند الله يقذفه في القلوب فإذا ما وقع الإنسان في المعصية فإن هذا النور ينطفئ.

وَلَمَّا جَلَسَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ بَيْنَ يَدَيْ مَالِكٍ وَقَرَأَ عَلَيْهِ أَعْجَبَهُ مَا رَأَى مِنْ وُفُورِ فِطْنَتِهِ، وَتَوَقُّدِ ذَكَائِهِ، وَكَمَالِ فَهْمِهِ، فَقَالَ: إِنِّي أَرَى اللَّهَ قَدْ أَلْقَى عَلَى قَلْبِكَ نُورًا، فَلَا تُطْفِئْهُ بِظُلْمَةِ الْمَعْصِيَةِ.

وتلك هي نصيحة المُعلم لتلميذه إذا ما رأى عليه علامات الخير.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي

وَقَالَ اعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ فَضْلٌ ... وَفَضْلُ اللَّهِ لَا يُؤْتَاهُ عَاصِي

فالعلم فضلٌ من عند الله وهذا الفضل لا يَتَنَزَّلْ على العُصاة.

سَأَلَ رَجُلٌ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ هَلْ يَصْلُحُ لِهَذَا الْحِفْظِ شَيْءٌ؟

قَالَ: إِنْ كَانَ يَصْلُحُ لَهُ شَيْءٌ فَتَرْكُ الْمَعَاصِي.

(الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي(١٧٨٣)).

لقد سأل رجل الإمام مالك (أراد منه النصيحة) عن الشيء الذي إذا فعله استقام حفظه، فأرشده إلى أن السبيل إلى ذلك هو ترك المعاصي.

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ الْفَتْحِ: سَمِعْتُ بِشْرَ بْنَ الْحَارِثِ، يَقُولُ: «إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تُلَقَّنَ، الْعِلْمَ فَلَا تَعْصِ» **(الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي(١٧٨٤)).**

وهذا يعني : أن العلم سيأتيك وأنت في مكانك وبمنتهى اليُسر ستُحصله بشرط أن تبتعد عن المعاصي.

٣-التكرار:

فالتكرار يؤدي إلى الحفظ، وللأسف التكرار منعدم الآن عند الكثير من طلاب العلم.

يقول ابن الجوزي في (الحث على حفظ العلم): الطريق إلى إحكامه كثرة الإعادة. والناس يتفاوتون في ذلك، فمنهم من يثبت معه المحفوظ مع قلة التكرار، ومنهم من لا يحفظ إلا بعد التكرار الكثير.

وكان أبو إسحاق الشيرازي (ت٤٧٦هـ) يعيد الدرس مائة مرة، وكان إلكيا الهراسي (٥٠٤هـ) يعيد سبعين مرة، وقال لنا الحسن بن أبي بكر النيسابوري الفقيه: لا يحصل الحفظ إلي حتى يعاد خمسين مرة. وحكى لنا الحسن أن فقيها أعاد الدرس في بيته مراراً كثيرة، فقالت له عجوز في بيته: قد – والله – حفظته أنا! فقال: أعيديه، فأعادته؛ فلما كان بعد أيام، قال: يا عجوز، أعيدي ذلك الدرس، فقالت: ما أحفظه، قال: إني أكرر عند الحفظ لئلا يصيبني ما أصابك" **(نصائح منهجية لطالب علم السنة النبوية).**

يتفاوت الناس في طريقة الحفظ فمنهم مَن يحفظ بسهولة ويُسر ومنهم مَن يحتاج إلى التكرار مراتٍ ومرات، فلا يعترض أحد على هذا التفاوت لأنه:

١- ذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء.

٢- يُقاس الأجر على قدر النصب كذا قال رسول الله ﷺ.

عَنِ الأَسْوَدِ، قَالاَ: قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَصْدُرُ النَّاسُ بِنُسُكَيْنِ، وَأَصْدُرُ بِنُسُكٍ؟ فَقِيلَ لَهَا: «انْتَظِرِي، فَإِذَا طَهُرْتِ، فَاخْرُجِي إِلَى التَّنْعِيمِ، فَأَهِلِّي ثُمَّ ائْتِينَا بِمَكَانِ كَذَا، وَلَكِنَّهَا عَلَى قَدْرِ نَفَقَتِكِ أَوْ نَصَبِكِ»**أخرجه البخاري(١٧٨٧)واللفظ له، أخرجه مسلم(١٢١١).**

فكلما كان هناك جهد وتعب ومشقة في التحصيل كلما علا الأجر.

عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ» أخرجه مسلم(٧٩٨)واللفظ له، أخرجه البخاري(٤٩٣٧).

إذن النسيان لا يأتي من الذنوب والمعاصي فقط بل قد يكون تقصير في التكرار والحفظ.

٤-أن يُهْتَدَ الإنسان بعلمه:

قال العلامة العثيمين رحمه الله: ومن الطرق التي تعين على حفظ العلم وضبطه أن يهتدي الإنسان بعلمه، قال الله تعالى:

{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: ١٧].

وقال: {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى} [مريم: ٧٦].

فكلما عمل الإنسان بعلمه زاده الله حفظًا وفهمًا، لعموم قوله: {زَادَهُمْ هُدًى} (مجموع فتاوى ورسائل العثيمين).

إذن نعود مرة أخرى للعمل، فكلما أخذ الإنسان علمًا وعمل به واهتدى بهذا العلم و حدث عنده نوع من الدقة في المراقبة والمحاسبة حتى يأتي بالعلم والحفظ كما ينبغي فإن الله يزده هدىً وحفظًا واتقانًا، فعلى العبد أن يهتدي بما عنده من العلم ولا يكون من الذين

_قال الله فيهم: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) }[الصف]، أومن الذين قال تعالى فيهم: { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)}[البقرة].

فكل هذه أمور قد يغفل المرء عنها أو لا يكون لديه فيها شدة مراقبة أو محاسبة فتؤدي به إلى نسيان العلم فضلًا عن أن يحفظه أساسًا.

حدثنا وَكِيعٌ، قَالَ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُجَمِّعِ بْنِ جَارِيَةَ، يَقُولُ: "كُنَّا نَسْتَعِينُ عَلَى حِفْظِ الْحَدِيثِ بِالْعَمَلِ بِهِ" (شعب الإيمان(١٦٥٩)).

فالعمل بالعلم يكون سببًا في حفظه وهذا يعني الاهتداء بالعلم الذي يحمله.

فيُطيب كسبه: أي أنه يأكل من الحلال لأن الأكل من الحرام هو الطامة الكبرى (الرشوة_الربا_أكل أموال الناس بالباطل_عدم سداد الدين _إلى غير ذلك من صور أكل الحرام).

ويصلح غذائه ويقل طعامه: لأن كثرة الطعام وطبيعته يؤديان إلى حالة من الخمول وعدم التركيز، فبمجرد أن يأكل الشخص فإن الدم يترك المخ ويتوجه إلى المعدة (وهذا ثابت علميًا).

٥-التقلل من الدنيا:

وكما قيل في بداية الدرس، كلما قلَّ الانشغال بالدنيا كلما صفا القلب، وكلما زاد الانشغال بها كلما صَعُب تحصيل العلم وحفظه.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.